

"وطوبى لمن لا يعثر في"

بقلم: شكري حبيبي

هناك عدد كبير من التطويبات التي تفوّه بها الرب يسوع المسيح، ولعلّ أشهرها تلك المعروفة في الموعظة على الجبل. والتي تبدأ بـ "طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السموات." (الإنجيل بحسب بشارة متى ٣:٥-١١) وأيضا تطويب الرب يسوع لتلاميذه: "طوبى لعيونكم لأنها تبصر. ولآذانكم لأنها تسمع. (بشارة متى ١٣:١٦) وأخيرا لا آخراً تلك الطوبى التي قالها المسيح للتلميذ توما: "طوبى للذين آمنوا ولم يروا." (بشارة يوحنا ٢١:٢٩).

أما الطوبى التي نحن في صددنا اليوم فهي: "طوبى لمن لا يعثر في." (بشارة متى ١١:٦) فقد صرّح بها الرب يسوع المسيح جواباً عن سؤال هام كان قد طرحه عليه يوحنا المعمدان. فلقد قبض الملك هيرودس على يوحنا المعمدان وألقاه في السجن. وفي السجن سمع يوحنا المعمدان بأعمال المسيح الباهرة، فأرسل اثنين من تلاميذه ليسألوا المسيح: "هل أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟" (بشارة متى ١١:٣) حقا من الغرابة بمكان أن يصدر مثل هذا السؤال عن يوحنا المعمدان. يوحنا المعمدان الذي أرسله الله لكي يمهد الطريق أمام المخلص والملك يسوع المسيح. والذي كان يكرز قائلاً: "أنا أعمدكم بماء للتوبة. ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحمل حذائه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار. الذي رفشه في يده وسينقي بيده ويجمع قمحه إلى المخزن. وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ." (بشارة متى ٣:١١ و١٢) يوحنا المعمدان الذي عندما رأى المسيح مقبلاً إليه من بعيد صرخ قائلاً: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم. هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجل صار قدامي لأنه كان قبلي." (بشارة يوحنا ١:٢٩ و٣٠) يوحنا المعمدان الذي عندما أراد المسيح أن يعتمد منه، "منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي." (بشارة متى ٣:١٤) يوحنا المعمدان الذي عندما اعتمد المسيح منه: "رأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيا عليه. وصوت من السموات قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت." (بشارة متى ٣:١٦) لا بل إن البشير يوحنا أضاف مقتبساً قول يوحنا المعمدان: "وأنا لم أكن أعرفه. لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله." (بشارة يوحنا ١:٣٣ و٣٤).

أجل من الغرابة بمكان أن يطرح يوحنا المعمدان هذا السؤال: أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟ لا نستطيع معرفة الأسباب التي دعت يوحنا المعمدان لطرح هذا السؤال، لكن بإمكاننا التكهن بها. ولعلّ أول وأهم سبب قد يتبادر إلى ذهننا، هو وجود يوحنا المعمدان

في السجن. فلا بد أن يوحنا المعمدان كان يتساءل في قلبه: إذا كان هذا هو المسيح المنتظر الذي تآقت لمجيئه جميع الأجيال، والذي سيحقق وعد الله بالخلاص للبشر، فكيف به يسمح بأن أوضع أنا، الذي أرسلني الله لكي أمهد الطريق أمامه، أن أوضع في السجن؟ ولماذا لا يُظهر قوته الإلهية في إخراجي من السجن؟ كان يوحنا المعمدان إذن محققاً من وجهة النظر البشرية في تساؤلاته. ولهذا بادر وأرسل تلميذين من تلاميذه لكي يتأكد هل هذا هو المسيح حقاً؟ أم علينا أن ننتظر آخر؟

لكن ماذا كان جواب الرب يسوع المسيح على هذا السؤال التحدي؟ "قال لهما: اذهبا واخبرا يوحنا بما تسمعان وتنتظران. العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون. وطوبى لمن لا يعثر في".

(بشارة متى ٤: ١١-٦) لقد كشف الرب يسوع المسيح بإجابته الموجزة عن الهدف الحقيقي من مجيئه إلى عالمنا. فهو أتى لكي يحرر الإنسان من عبودية الخطية، وليهب الخلاص الحقيقي لكل من يؤمن. وما هذه العجائب الباهرة التي يقوم بها، إلا برهان أكيد، ودليل واضح على أنه فعلاً يحقق المهمة التي تنازل من السماء من أجلها، وأن قوة الله معه. فالعمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون. فهل هناك أعظم من هذا البرهان أنه هو المسيح الذي مهد يوحنا المعمدان الطريق أمامه؟

وأراد المسيح بإجابته أيضاً إيضاح المفهوم الصحيح لمجيئه. فهو لم يأت ليؤسس مملكة أرضية كما ظن يوحنا المعمدان وغيره الكثيرون من اليهود، ولم يأت لتحقيق أهداف مادية بشرية، إنما أتى لإنقاذ الإنسان، الإنقاذ الروحي الحقيقي. لهذا لم يكن غريباً أن يقتبس الرب يسوع المسيح هنا نبوءة أشعيا القائلة: "روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأعصب منكسري القلب لأنادي للمسيبين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق." (أشعيا ٦١: ١) وكأنه أراد بذلك التأكيد ليوحنا المعمدان أنه هو المسيح المنتظر الذي تنبأ عنه الأنبياء، وأشاروا إليه. ثم ختم الرب يسوع المسيح إجابته بهذه الطوبى البليغة: "وطوبى لمن لا يعثر في". أي طوبى لمن بالرغم من كل ظروفه الصعبة، وتجاربه المؤلمة، لا يشك فيّ أبداً، بل يثق أنني أنا هو المسيح المخلص الحقيقي الذي أتى إلى العالم.

لكن ماذا عنا نحن اليوم الذين نعيش في أوائل القرن الحادي والعشرين؟ ألا نواجه أموراً كثيرة في الحياة، قد تززع ثقتنا بالرب يسوع المسيح، وتجعلنا نقف مع يوحنا المعمدان محتارين متسائلين:

لماذا يسمح المسيح المخلص الذي وضعنا ثقتنا به، وأسلمنا له مقادير حياتنا، لماذا يسمح بأن نمر في هذه الظروف الصعبة وأن نعاني من التجارب المؤلمة القاسية؟ إنها بالحق تساؤلات طبيعية تصدر عنا كبشر. وللإجابة نقول أنه علينا كمؤمنين أن لا نتجاهل

أو ننسى في خضم المعاناة التي نعيشها، الأمور العظيمة الكثيرة التي صنعها الرب معنا وفي حياتنا. فهو الذي نقلنا من الظلمة إلى النور، وحررنا من عبودية الخطية، وغفر خطايانا، وجعلنا من أولاد الله، وفوق هذا كله أعطانا الحياة الأبدية. فلماذا نشك بأمانته معنا؟ ولماذا نقلق ونخاف كباقي البشر؟ وإذا كان الرب قد سمح لنا بأن نمر في ظروف صعبة وتجارب قاسية، فهو لابد أن له غرضاً من ذلك، وهو تنقية حياتنا، وتقوية إيماننا. مع العلم أن هناك أموراً كثيرة، قد يصعب علينا فهمها، ومعرفة قصد الله من ورائها. لكن علينا أن لا نتزعزع في ثقتنا بالمسيح وفي إيماننا بالله. فالمسيح هو مخلصنا، والله هو أبونا. وعندما نتق الثقة الكاملة بالرب يسوع المسيح مخلصنا، بالرغم من كل ظروفنا الصعبة، ننال الطوبى التي قال عنها المسيح: "طوبى لمن لا يعثر في".

كتب الرسول بطرس قائلاً: "أيها الأحباء لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب. بل كما اشتهرتم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبتهجين. إن غيرتم باسم المسيح فطوبى لكم لأن روح المجد والله يحل عليكم. (رسالة الرسول بطرس الأولى ٤: ١٢-١٤) إذن إن التجارب القاسية، والظروف الصعبة لابد أن تأتي على المؤمن، لكن عليه أن لا يستغرب هذا الأمر، ولا يشك أو تتزعزع ثقته بمخلصه، بل على العكس على هذه التجارب والمصاعب أن تزيد ثقته وإيمانه بالله الحي، ومخلصه وفاديه الرب يسوع المسيح.

وعندها لابد أن ينال الطوبى، أي ينال استحسان الله الأب والمخلص المسيح.

فهل مازلت أخي المؤمن المتألم تتساءل مع يوحنا المعمدان: لماذا يسمح المسيح مخلصي بأن أمرّ بهذه الظروف الصعبة وأعاني من هذه التجارب القاسية؟ أم أنك بالرغم من معاناتك تضع ثقتك الكاملة بالمخلص الذي أحبك ومات على الصليب من أجلك لكي يهبك معه كل شيء؟